الباب الثالث عشر

في بَيان أنَّ الإنسان لا يستغني عن الصبر في حالٍ من الأحوال

فإنه بين أمر يجب عليه امتثاله وتنفيذه، ونهي يجب عليه اجتنابه وتركه وقدر يجري عليه اتفاقاً ونعمة يجب شكر المنعم عليها، وإذا كانت هذه الأحوال لا تفارقه فالصبر لازم له إلى الممات وكل ما يلقى العبد في هذه الدار لا يخلو من نوعين: أحدهما يوافق هواه ومراده والآخر يخالفه وهو محتاج إلى الصبر في كل منهما «**النوع الأول**» الموافق لغرضه فكالصحة والسلامة والجاه والمال وأنواع الملاذ المباحة وهو أحوج شيء إلى الصبر فيها من وجوه:

أحدها: أن لا يركن إليها، ولا يغتر بها ولا تحمله على البطر والأشَر والفرح المذموم الذي لا يحب الله أهله.

الثاني: أن لا ينهمك في نيلها ويبالغ في استقصائها فإنها تنقلب إلى أضدادها فمن بالغ في الأكل والشرب والجِماع انقلب ذلك إلى ضده وحرم الأكل والشرب والجماع.

الثالث: أنْ يصبر على أداء حق الله فيها ولا يضيعه فيسلبها.

الرابع: أن يصبر عن صرفها في الحرام فلا يمكن نفسه من كل ما تريده منها فإنها توقعه في الحرام فإن احترز كل الاحتراز أوقعته في المكروه، ولا يصبر على السراء إلا الصديقون.

قال بعض السلف: «**البلاء يصبر عليه المؤمن والكافر ولا يصبر على العافية إلا الصديقون**».

وقال عبد الرحمٰن بن عوف رضي الله عنه: «**ابتلينا بالضراء فصبرنا وابتلينا**

بالسراء فلم نصبر». ولذلك حذر الله عباده من فتنة المال والأزواج الأولاد فقال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تُلۡهِكُمۡ أَمۡوَٰلُكُمۡ وَلَآ أَوۡلَٰدُكُمۡ عَن ذِكۡرِ ٱللَّهِۚ﴾ (المنافقون: ٩). وقال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِنَّ مِنۡ أَزۡوَٰجِكُمۡ وَأَوۡلَٰدِكُمۡ عَدُوّٗا لَّكُمۡ فَٱحۡذَرُوهُمۡۚ﴾ (التغابن: ١٤). وليس المراد من هذه العداوة ما يفهمه كثير من الناس أنها عداوة البغضاء والمحادة بل إنما هي عداوة المحبة الصادة للأباء عن الهجرة والجهاد وتعلم العلم والصدقة وغير ذلك من أمور الدين وأعمال البر كما في **«جامع الترمذي»** من حديث إسرائيل: حدثنا سماك عن عكرمة عن ابن عباس وسأله رجل عن هذه الآية: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِنَّ مِنۡ أَزۡوَٰجِكُمۡ وَأَوۡلَٰدِكُمۡ عَدُوّٗا لَّكُمۡ فَٱحۡذَرُوهُمۡۚ﴾ (التغابن: ١٤). قال: هؤلاء رجال أسلموا من أهل مكة فأرادوا أن يأتوا النبي ﷺ فأبى أزواجهم وأولادهم أن يدعوهم أن يأتوا رسول الله ﷺ فلما أتوا رسول الله ﷺ ورأوا الناس قد فقهوا في الدين هموا أنْ يعاقبوهم فأنزل الله: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِنَّ مِنۡ أَزۡوَٰجِكُمۡ وَأَوۡلَٰدِكُمۡ عَدُوّٗا لَّكُمۡ﴾ (التغابن: ١٤). الآية. قال الترمذي: هذا حديث حسن صحيح.

وما أكثر ما فات العبد من الكمال والفلاح بسبب زوجته وولده وفي الحديث: **«الولد مبخلة مجبنة»**.

وقال الإمام أحمد: حدثنا زيد بن الحباب قال: حدثني زيد بن واقد قال: حدثني عبد الله بن بريدة قال: سمعت أبي يقول: كان رسول الله ﷺ يخطبنا فجاء الحسن والحسين عليهما قميصان أحمران يمشيان ويعثران فنزل رسول الله ﷺ عن المنبر فحملهما فوضعهما بين يديه ثم قال: صدق الله ﴿إِنَّمَآ أَمۡوَٰلُكُمۡ وَأَوۡلَٰدُكُمۡ فِتۡنَةٞۚ﴾ (التغابن: ١٥) نظرت إلى هذين الصبيين يمشيان ويعثران فلم أصبر حتى قطعت حديثي ورفعتهما وهذا من كمال رحمته ﷺ ولطفه بالصغار وشفقته عليهم وهو تعليم منه للأمة الرحمة والشفقة واللطف بالصغار.

فصل [في شدة الصبر على السرّاء]

وإنما كان الصبر على السراء شديداً لأنه مقرون بالقدرة والجائع عند غيبة

الطعام أقدر منه على الصبر عند حضوره وكذلك الشبق عند غيبة المرأة أصبر منه عند حضورها.

فصل [في الصبر المخالف للهوى]

وأما النوع الثاني المخالف للهوى فلا يخلو أما أن يرتبط باختيار العبد كالطاعات والمعاصي أو لا يرتبط أوله باختياره كالمصائب أو يرتبط أوله باختياره ولكن لا اختيار له في إزالته بعد الدخول فيه فههنا ثلاثة أقسام:

أحدهما: ما يرتبط باختياره وهو جميع أفعاله التي توصف بكونها طاعة أو معصية فأما الطاعة فالعبد محتاج إلى الصبر عليها لأن النفس بطبعها تنفر عن كثير من العبودية أما في الصلاة فلما في طبعها من الكسل وإيثار الراحة ولا سيما إذا اتفق مع ذلك قسوة القلب ورين الذنب والميل إلى الشهوات ومخالطة أهل الغفلة فلا يكاد العبد مع هذه الأمور وغيرها أن يفعلها وإن فعلها مع ذلك كان متكلفاً غائبَ القلب، ذهلاً عنها، طالباً لفراقها كالجالس إلى الجيفة.

وأما الزكاة فلما في طبعها (أي النفس) من الشح والبخل، وكذلك الحج والجهاد للأمرين جميعاً ويحتاج العبد هاهنا إلى الصبر في ثلاثة أحوال:

الحالة الأولى: قبل الشروع فيها بتصحيح النية، والإخلاص، وتجنب دواعي الرياء، والسمعة وعقد العزم على توفيته المأمورية حقها.

الحالة الثانية: الصبر حال العمل فيلازم العبد الصبر عن دواعي التقصير فيه والتفريط ويلازم الصبر على استصحاب ذكر النية وعلى حضور القلب بين يدي المعبود وأن لا ينساه في أمره فليس الشأن في فعل المأمور بل الشأن كل الشأن أن لا ينسى الآمر حال الإتيان بأمره بل يكون مستصحباً لذكره في أمره فهذه عبادة العبيد المخلصين لله فهو محتاج إلى الصبر على توفية العبادة حقها بالقيام بأدائها وأركانها وواجباتها وسننها والى الصبر على استصحاب ذكر المعبود فيها ولا يشتغل عنه بعبادته فلا يعطله حضوره مع الله بقلبه عن قيام جوارحه بعبوديته ولا يعطله قيام الجوارح بالعبودية عن حضور قلبه بين يديه سبحانه.

الحالة الثالثة: الصبر بعد الفراغ من العمل وذلك من وجوه:

أحدها: أن يصبر نفسه عن الإتيان بما يبطله عمله قال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تُبْطِلُواْ صَدَقَٰتِكُم بِٱلْمَنِّ وَٱلْأَذَىٰ﴾ (البقرة: ٢٦٤). فليس الشأن الإتيان بالطاعة إنما الشأن في حفظها مما يبطلها.

الثاني: أن يصبر عن رؤيتها والعجب بها والتكبر والتعظم بها فإن هذا أضر عليه من كثير من المعاصي الظاهرة.

الثالث: أن يصبر عن نقلها من ديوان السر إلى ديوان العلانية، فإن العبد يعمل العمل سراً بينه وبين الله سبحانه فيكتب في ديوان السر، فإن تحدث به نقل إلى ديوان العلانية فلا يظن أن بساط الصبر انطوى بالفراغ من العمل.

فصل [في الصبر عن المعاصي]

وأما الصبر عن المعاصي، فأمره ظاهر وأعظم ما يعين عليه قطع المألوفات ومفارقة الأعوان عليها في المجالسة والمحادثة، وقطع العوائد فإن العادة طبيعة خاصة فإذا انضافت الشهوة إلى العادة تظاهر جندان من جند الشيطان فلا يقوى باعث الدين على قهرهما.

القسم الثاني: مالا يدخل تحت الاختيار وليس للعبد حيلة في دفعه كالمصائب التي لا صنع للعبد فيها كموت من يعز عليه وسرقة ماله ومرضه ونحو ذلك، وهذا نوعان:

أحدهما: مالا صنع للعبد الآدمي فيه.

والثاني: ما أصابه من جهة آدمي مثله كالسب والضرب وغيرهما فالنوع الأول للعبد أربع مقامات:

المقام الأول: مقام العجز وهو مقام الجزع والشكوى والسخط وهذا مالا يفعله إلا أقل الناس عقلاً وديناً ومروءة وهو أعظم المصيبتين.

المقام الثاني: مقام الصبر إما لله وإما للمروءة الإنسانية.

المقام الثالث: مقام الرضا وهو أعلى من مقام الصبر وفي وجوبه نزاع والصبر متفق على وجوبه.

المقام الرابع: مقام الشكر وهو أعلى من مقام الرضا فإنه يشهد البلية نعمة فيشكر المبتلي عليها.

وأما **النوع الثاني**، وهو ما أصابه من قبل الناس فله فيه هذه المقامات ويضاف إليها أربعة أخر. **أحدها**: مقام العفو والصفح. **والثاني**: مقام سلامة القلب من إرادة التشفي والانتقام وفراغه من ألم مطالعة الجناية كل وقت وضيقه بها. **الثالث**: مقام شهود القدر وأنه وإن كان ظالماً بإيصال هذا الأذى إليك فالذي قدره عليك وأجراه على يد هذا الظالم ليس بظالم وأذى الناس مثل الحر والبرد لا حيلة في دفعه فالمتسخط من أذى الحر والبرد غير حازم والكل جار بالقدر وإن اختلفت طرقه وأسبابه المقام. **الرابع**: مقام الإحسان إلى المسيئ ومقابلة إساءته بإحسانك وفي هذا المقام من الفوائد والمصالح مالا يعلمه إلا الله فإن فات العبد هذا المقام العالي فلا يرضى لنفسه بأخس المقامات وأسفلها.

فصل [في أنّ الصبر دواء]

القسم الثالث: ما يكون وروده باختياره فإذا تمكن لم يكن له اختيار ولا حيلة في دفعه، وهذا كالعشق أوله اختيار وآخره اضطرار وكالتعرض لأسباب الأمراض والآلام التي لا حيلة في دفعها بعد مباشرة أسبابها كما لا حيلة في دفع السكر بعد تناول المسكر فهذا كان فرضه الصبر عنه في أوله، فلما فاته بقي فرضه الصبر عليه في آخره وأن لا يطيع داعي هواه ونفسه وللشيطان هاهنا دسيسة عجيبة وهي أن يخيل إليه أن ينل بعض ما منع قد يتعين عليه أو يباح له على سبيل التداوي، وغايته أن يكون كالتداوي بالخمر والنجاسة وقد أجازه كثير من الفقهاء وهذا من أعظم الجهل فإن هذا التداوي لا يزيل الداء بل يزيده ويقويه وكم ممن تداوى بذلك فكان هلاك دينه ودنياه في هذا الدواء بل الدواء النافع لهذا الداء الصبر والتقوى كما قال تعالى: ﴿وَإِن تَصْبِرُوا۟ وَتَتَّقُوا۟ فَإِنَّ ذَٰلِكَ مِنْ

عَزْمِ ٱلْأُمُورِ﴾ (آل عمران: ١٨٦). وقال: ﴿إِنَّهُۥ مَن يَتَّقِ وَيَصْبِرْ فَإِنَّ ٱللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجْرَ ٱلْمُحْسِنِينَ﴾ (يوسف: ٩٠). فالصبر والتقوى دواء كل داء من أدواء ولا يستغني أحدهما عن صحابه، فإن قيل: فهل يثاب على الصبر في هذا القسم إذا كان عاصياً مفرطاً يتعاطى أسبابه وهل يكون معاقباً على ما تولد منه وهو غير اختياري له.

قيل: نعم إذا صبر لله تعالى وندم على ما تعاطاه من السبب المحظور أثيب على صبره لأنه جهاد منه لنفسه وهو عمل صالح والله لا يضيع أجر من أحسن عملاً.

وأما عقوبته على ما تولد منه فإنه يستحق العقوبة على السبب وما تولد منه كما يعاقب السكران على ما جناه في حال سكره، فإذا كان السبب محظوراً لم يكن السكران مغذوراً فإن الله سبحانه يعاقب على الأسباب المحرمة وعلى ما تولد منها كما يثيب على الأسباب المأمور بها وعلى ما تولد منها ولذا كان من دعا إلى بدعة وضلالة فعليه من الوزر مثل أوزار من أتبعه لأن اتباعهم له تولد عن فعله ولذلك كان على ابن آدم القاتل لأخيه كفل من ذنب كل قاتل إلى يوم القيامة وقد قال تعالى: ﴿لِيَحْمِلُوٓاْ أَوْزَارَهُمْ كَامِلَةً يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ وَمِنْ أَوْزَارِ ٱلَّذِينَ يُضِلُّونَهُم بِغَيْرِ عِلْمٍ﴾ (النحل: ٢٥) وقال تعالى: ﴿وَلَيَحْمِلُنَّ أَثْقَالَهُمْ وَأَثْقَالًا مَّعَ أَثْقَالِهِمْ﴾ (العنكبوت: ١٣).

فإن قيل: فكيف التوبة من هذا المتولد وليس من فعله، والإنسان إنما يتوب عما يتعلق باختياره؟ قيل: التوبة منه بالندم عليه وعدم إجابة دواعيه وموجباته وحبس النفس عن ذلك فإن كان المتولد متعلقاً بالغير، فتوبته مع ذلك برفعه عن الغير بحسب الإمكان ولهذا كان من توبة الداعي إلى البدعة أن يبين أن ما كان يدعو إليه بدعة وضلالة وأن الهدى في ضده كما شرط تعالى في توبة أهل الكتاب الذين كان ذنبهم كتمان ما أنزل الله في البينات والهدى ليضلوا الناس بذلك أن يصلحوا العمل في نفوسهم ويبينوا للناس ما كانوا يكتمونهم إياه فقال: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يَكْتُمُونَ مَآ أَنزَلْنَا مِنَ ٱلْبَيِّنَٰتِ وَٱلْهُدَىٰ مِنۢ بَعْدِ مَا بَيَّنَّٰهُ لِلنَّاسِ فِى ٱلْكِتَٰبِ

﴿أُولَٰئِكَ يَلْعَنُهُمُ اللَّهُ وَيَلْعَنُهُمُ اللَّاعِنُونَ ﴿١٥٩﴾ إِلَّا الَّذِينَ تَابُوا وَأَصْلَحُوا وَبَيَّنُوا فَأُولَٰئِكَ أَتُوبُ عَلَيْهِمْ وَأَنَا التَّوَّابُ الرَّحِيمُ ﴿١٦٠﴾﴾ (البقرة: ١٥٩ ـ ١٦٠) وهذا ما شرط في توبة المنافقين الذين كان ذنبهم إفساد قلوب ضعفاء المؤمنين، وتحيزهم واعتصامهم باليهود، والمشركين أعداء الرسول وإظهارهم الإسلام رياء وسمعة أن يصلحوا بدل إفسادهم، وأن يعتصموا بالله بدل اعتصامهم بالكفار من أهل الكفار والمشركين، وأن يخلصوا دينهم لله بدل إظهارهم له رياء وسمعة فهكذا تفهم شرائط التوبة وحقيقتها، والله المستعان.

□

obeikandl.com